

يوميات من السلام في دوسلدورف

اليوم موعد سفري إلى صديقتي في "دوسلدورف"، يجب أن أكون بالمطار في الرابعة مساءً، بالتأكيد سأقضي أوقاتًا مختلفة، عندما قلت الخبر لزميلة سكني الروسية في مكان إقامتنا بهامبورج، ضغطت على يدي بقوة، وضممتني إليها برفق، قائلة إنها سوف تفتقدني، وتمنت لي عطلة سعيدة.

وصلت المطار، أنهيت الإجراءات وجلستُ أنتظر في صالة السفر بمفردي، ساعة تقريبًا وكنتُ في مطار دوسلدورف أبحث عن صديقتي المصرية التي تعيش بدوسلدورف، هاتفي لا يعمل، لا أتمكن من الاتصال بها، شبكات الانترنت ضعيفة للغاية، أخيرًا أرسلت إليها رسالة أخبرها أنني انتظرها عند البوابة، لترد بأنها أيضًا عند البوابة ولا تراني. أمضينا خمس عشرة دقيقة إلى أن التقينا أخيرًا، فكل منا انتظرت في مكان مختلف، فهي انتظرت في بوابة الدور الأسفل حيث مكان استلام المسافرين حقائبهم، بينما كنتُ في الدور العلوي إذ أحمل حقيبة صغيرة أخذتها معي في الطائرة، ولم أضعها مع حقائب المسافرين.

ركبنا سيارتها وذهبنا لنفاجئ أطفالها بحضوري، فعلاقتي بالأطفال بوجه عام غريبة للغاية، فما أن تتلاقى عيناى بعين طفل أو طفلة ولو بنظرة عابرة، يتعلق كلانا بالآخر إلى الأبد. وقد ألقى الله بقلبي حب الأطفال، كما ألقى بقلوبهم حبي، وهذا التعلق كثيرًا ما يؤلمني، إذ لم يقدر لي الله الزواج، حاولت بجدية، ولم أكن يومًا من الفتيات اللواتي يغالين في طلبات الزواج، أو أضع شروطًا خاصة مبالغًا فيها لزوج المستقبل، بل في أحيان عديدة كنتُ أتنازل عن الحد الأدنى المقبول، وأوافق على الارتباط لكن لم تتم أي زيجة أبدًا. تقدم بي العمر، ومع الوقت قلت فرص الارتباط، وقل معها الرجال الجادون، يوجد فقط من يريد قضاء وقت للتسلية، ومع الوقت تقل القدرة أيضًا على الإنجاب، وقدرتي الصحية ذاتها تتناقص وتضعف، وحتى لو وجدت القدرة، تقل فرص الحصول على أطفال بصحة جيدة، فهل لأتمتع بغريزة الأمومة أنجب طفلًا ليتعذب من مرض ما؟؟!!

اقتنعت بهذه الفكرة مؤخرًا رغم نصيحة كل من حولي، والتي يشوبها شيء من التهديد بتشككي في قدرة الله، وأنه سيمنحني طفلًا ذا صحة جيدة، وأنني لا أعلم الغيب، ولا يردعهم عن قولهم ردي بأن إيماني بالله يجعلني لا أفكر بأنانية، وأن ضعف صحة المرأة وقدرتها على الإنجاب تتزايد مع التقدم في العمر، هكذا خلقنا الله، وهذه مشيئته فلا سبيل للمكابرة والعناد والإصرار على إلحاق الضرر بمخلوق صغير لأشبع رغبتني في الأمومة. كنتُ فيما سبق على استعداد لفعل أي شيء لأحظى بطفل، فوافقت على الارتباط برجال الزواج منهم محكوم عليه بالفشل لا محالة، وفكرت أن أنجب ثم أطلب الطلاق وأربي طفلي بنفسى، لكن الله لا يرضى لنا السوء الذي نرضاه لأنفسنا، فلم يكتب لأي من هذه المحاولات التحقق. يتهمني البعض بأنني انشغلت بحالي ومهنتي ومساري العلمي، وأهملت عن عمد أمر الزواج، ويتهمني البعض الآخر بأن

التقدم الذي أحققه يجعلني أشعر بالغرور والتكبر، ولا يعجبني أحد، فأتدلل على العرسان، ولا يتوانى البعض عن قول إنني أوصلت نفسي إلى "العنوسة" بكثرة رفضي. كلمات وأقاويل عدة تتال مني وتؤلمني، ولا أحد يشعر بذلك الفراغ الذي يؤلمني بحق، فمهما حققت من حياة جيدة ناجحة أظل "بمفردي" بلا رفيق، بلا أبناء زينة الحياة الدنيا، دون سماع كلمة "ماما"، حقًا يخطئ أولاد إخوتي في مناداتي هكذا أحيانًا، ويقولون لي كثيرًا أنهم يشعرون أنني أهم، وهكذا أطفال صديقتي، إلا أنهم في نهاية اليوم يعودون لأمهاتهم، وأعود "وحيدة".

لدى صديقتي طفلان، ولد في الحادية عشرة، وفتاة في السابعة، راحا يقفزان ككرات ملونة صغيرة فور رؤيتي، حضن كل منهما ينقلني إلى عالم آخر، إحساس يشبه الطيران والذوبان بين نتف السحاب. أعدت صديقتي إفطارًا شهياً، وليمة صغيرة احتفالاً بقدمي، أخيراً دفء حقيقي وأمان، بعد أيام من الخوف والبرد والوحدة. في اليوم التالي ذهبنا إلى محال الملابس والهدايا بمنطقة الأسواق، وقضينا أوقاتًا جميلة، ثم ذهبنا إلى النهر، وتمشينا في بعض الأماكن السياحية، قليلاً ما يلتفت إليّ أحد ثم يدير وجهه بلا مبالاة، أو يرميني بنظرات بها شيء من الانزعاج، لكن لم أقابل أي نظرات عدائية مثل ما يحدث في هامبورج. قلت لصديقتي عما حدث معي، فأخبرتني أن هذا ربما بسبب الحجاب، أو لملامح وجهي الغربية عنهم، أو عندما يسمعونني أتحدث العربية، فسبب واحد من هذه الاحتمالات كافٍ لأن يعاملونني هكذا. سألتها لماذا الوضع أقل عدائية هنا، وقد لاحظت أن ردود فعلهم تختلف إذا كنت بصحبة أحد، أو فتاة غير محجبة، قالت إن في دوسلدورف نسبة كبيرة من العرب والمحجبات، فاعتادوا هذا الأمر إلى حد ما.

انتهت العطلة سريعًا، وكأنها "استراحة محارب" كما يقولون، كواحة خضراء نبتت وسط صحراء الثلوج التي عليّ العودة إليها. يوم السفر صباحًا أخذتني صديقتي إلى سوبر ماركت يبيع منتجات لحوم وألبان وأنواع من الجبن "حلال"، أي مذبوحة ومصنعة على الطريقة الإسلامية، فاشتريت ما يكفيني فترة إقامتي المتبقية، وذهبت إلى المطار بحقيبة محملة بخيرات الأهل والأحباب. حتى موظفي المطار بدوسلدورف تعاملهم مختلف عن نظرائهم في هامبورج، فبعض الأشياء التي اشتريتها كان بها نسبة من السوائل تتعدى المسموح الصعود به إلى الطائرة، وكانت الحقيبة صغيرة خشيت فقدها إذا وضعتها بين الحقائب الكبيرة للمسافرين. قلت لهم إنني مضطرة لأخذ هذه الأشياء، وسألتهم عن حل لهذه المشكلة، فاقترحت سيدة منهم فتح علب الطعام التي بها سائل، وإفراغها منها، والاكتفاء بالأطعمة بداخلها، فوافقت على الفور، شكرتهم بامتنان حقيقي، وتمنيت أن تسير باقي أيام رحلتي هكذا، وتنتهي بسلام.